

خاتمة المطاف

العلماء ورثة الأنبياء

نار الله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

نقد بدأ الله تعالى بنفسه. وثنى بالملائكة. وثالث بأهل العلم. وناهيك به شرفا ونضلا وجلاء ونبلا.

وقال عز وجل: ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾

[المجادلة: ١١]

قال ابن عباس رضى الله عنهما: للعلماء درجات فوق درجات المؤمنين بسبعمائة درجة مابين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام.

وقال الله عز وجل ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[الزمر: ٩]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

فالعلماء بالله تعالى هم أكثر الناس له خشية وأشدهم منه خوفا. فالعبد يخشى ربه على قدر علمه به سبحانه وتعالى.

وقال عز وجل: ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ

الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٤٣].

أى شرف للعلماء بعد هذا الشرف العظيم؟

وبإل تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ

يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣] فقد رد حكمه فى الوقائع إلى استنباطهم وألحق

رتبتهم برتبة الأنبياء فى كشف حكم الله، قاله الإمام الغزالي رحمه الله تعالى.

وقال: قيل فى قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ يعنى العلم ﴿وَرِيْشًا﴾ يعنى اليقين ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ يعنى الحياء (١) . ١ هـ .

وروى الشيخان من حديث معاوية رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين) وعند الطبرانى فى الكبير بزيادة (ويلهمه رشده) .

وأخرج أبو داود والترمذى وغيرهما من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: (العلماء ورثة الأنبياء) ومعلوم أنه لارتبة فوق رتبة الأنبياء . ولا شرف فوق الورثة لتلك الرتبة .

وأخرج الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: (خصلتان لا يكونان فى منافق: حسن سمى وفقه فى الدين) أى الفقه الذى يخلق فى صاحبه الخضوع والخشية والتواضع لله عز وجل . وهو ما صحت فيه النية وصدق فيه المقصد . أما الفقه الذى طلبه صاحبه ليتكسب به أو لينال به درجة أو وظيفة . فهذا هو الذى ذكر فى الحديث .

وأخرج الترمذى عن أبى أمامة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: (فضل العالم على العابد كفضلى على آدنى رجل من أصحابى) حسن صحيح وذلك لأن العالم: علم فعمل بما علم وهذا خير الناس . يقول الإمام الغزالى فانظر كيف جعل العلم مقارنا لدرجة النبوة . وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التى يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة؟

وقال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾

[التوبة: ١٢٢]

وقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [السل: ٤٣] .

وأخرج مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . أن رسول الله ﷺ قال .

(١) الإحياء: ١/١٥١ والآية من سورة الاعراف: ٢٦ .

(من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة)

وروى أحمد والحاكم من حديث صفوان بن عسال رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع) .

وروى في الصحيحين من حديث سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال لعلى : (لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها) ورواه أحمد عن معاذ بن جبل وأخرج الترمذى من حديث أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله سبحانه وملائكته وأهل سماواته وأرضه حتى النملة فى جحرها حتى الحوت فى البحر ليصلون على معلم الناس الخير) .

وأخرج مسلم عن أبى هريرة أن النبي ﷺ وقان : (إذا مات ابن آدم يقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) .

فهذه النصوص القرآنية وتلك الأحاديث النبوية وغيرها كثير . كلها تبين لنا فى وضوح فضيلة العلم والتعليم والعلماء . لأن العلماء ورثة الأنبياء لأنهم يحملون رسالتهم من بعدهم . والعلماء بهذا تكون مسئوليتهم خطيرة وأمرهم عظيم وأحرتهم رضا العلى الكبير عنهم ومغفرته لهم . إن كانوا قد أدوا الأمانة وبلغوا دعوة نبيهم ﷺ بصدق وإخلاص وقد اتخذوا رسول الله ﷺ أسوة لهم وقدوة يقتدون به فى منهجه صلوات الله وسلامه عليه لذلك نالوا هذا الشرف العظيم وتلك الرتبة العالية . لأن الوارث شرفه من شرف من ورثه . وهؤلاء ورثة المصطفى ﷺ فأنعم به من شرف .

* * *

النبي صلى الله عليه وسلم وورثته

عرف العلماء العلم . بأنه : إدراك المعلوم على ما هو به .

فالعلم وصف قائم بالعالم به يدرك حقائق الأشياء . لأن التعرف على الأشياء لا يحصل إلا بعلم ومعرفة . والبشرية لا تستغنى عن العلم فى كل شعور حياتها الدنيوية والأخروية . لذا كان شأن العلم عظيما وأمره خطيرا . ولا يشتغل بالعلم - أيا كان موضوعه - إلا كل إنسان من الله عليه بقدرات عقلية ورغبة ملحة فى تحصيل العلوم والمعارف . وبقدر نية العبد وقدرته العقلية ورغبته يمنحه الله تعالى علما ومعرفة . ليقدم أمته دينا ودنيا .

والإسلام قد أشاد بالعلم والعلماء لأنه دين قائم على العلم والمعرفة . كما سبق وقد مكث النبي ﷺ ثلاثا وعشرين سنة يبلغ الناس دعوة الله عز وجل ويعلمهم أحكام الله تعالى - وأمره ونواهيه - فقد كان يلقي على مسامعهم فى كل يوم ما يأمره به الوحي . فكانوا يتلقونه بالقبول فتعياه قلوبهم وتفقهه عقولهم لصدق نياتهم وإخلاصهم فى خدمة دينهم . فعاش ﷺ ومات وهو راى عنهم : والله عز وجل قد كليل رضا نبيه برضاه عنهم رضوان الله عليهم ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ .

وما هو معلوم ضرورة أن مبايعتهم لله ولرسوله لم تكن مجاملة ولا محاباة وإنما كان مصدرها العلم بالله عز وجل ومعرفة قدر ومنزلة النبي ﷺ لذلك أثنى عليهم معلمهم ﷺ فقال : (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) ثم جاء من بعدهم من العلماء أجيال متتابعة بعضها طيب وبعضها خلط الخير بغيره لتغير مقاصدهم واختلاف نياتهم وتوجهاتهم .

قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى (١) : اعلم أن الخلافة بعد رسول الله ﷺ تولها الخلفاء الراشدون المهديون وكانوا أئمة علماء بالله تعالى . فقهاء فى أحكامه . وكانوا مستقلين بالفتاوى فى الأفضية . فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادرا فى وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة . ففرغ العلماء لعلم

(١) إحياء علوم الدين ١/٥٥٠ .

الآخرة ونجردوا لها . وكانوا يتدافعون الفتاوى . وما يتعلق بأحكام اخلق من الدنيا . وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم كما نقل من سيرهم . فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام . اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجارى أحكامهم . وكان قد بقى من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول وملازم صفو الدين . ومواظب على سميت علماء السلف . فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح فى طلبهم لتولية القضاء والحكومات .

فرى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاية عليهم مع إعراضهم عنهم فاشربوا لطلب العلم توصلا إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاية . فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاية . وتعرفوا إليهم . وطلبوا الولايات والصلات منهم . فمنهم من حرم . ومنهم من أنجح . والمنجح له يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال . فأصبح الفقهاء - بعد أن كانوا مطلوبين - طالبين . وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم . إلا من وفقه الله تعالى فى كل عصر من علماء دين الله . وقد كان أكثر الإقبال فى تلك الأعصار على علم الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة إليها فى الولايات والحكومات . ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس فى قراعد العقائد ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها . فعلمت رغبته الى المناظرة والمجادلة فى الكلام . فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف . ورتبوا فيه طرق امجادلات . واستخرجوا فنون المناقضات فى المقالات . وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة . كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاستغال بالفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين . إشفاقا على خلق الله ونصيحة لهم .

ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض فى الكلام وفتح باب المناظرة فيه . لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد . ومالت نفسه إلى

المناظرة فى الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعى وأبى حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص فترك الناس الكلام وفنون العلم وانتالوا على المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة على الخصوص. وتساهلوا فى الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم. وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى. وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات. وهم مستمررون عليه إلى الآن.

ولسنا ندرى ما الذى يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار؟

فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافات والمناظرات لاغير. ولومالت نفوس أرباب الدنيا إلى 'الخلاف مع إمام آخر من الأئمة أو إلى علم آخر من العلوم بماالوا أيضا معهم. ولم يسكنوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين أ.هـ.

وأقول لإمامنا العلامة: أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى:

ياسيدى: لقد أصبح حال العلماء أسوأ مما ذكرت. وأخبت مما عرفت. لقد نسوا الله تعالى فأنساهم أنفسهم. ومالوا إلى الدنيا يطلبون متعها وشهواتها لقد نافقوا الله ورسوله طلبا للرياسة أو للشهرة أو لجمع المال من هنا أو من هناك. وتنازلوا عن مسئوليتهم الخطيرة.

لقد ضيعوا سنة رسول الله ﷺ. وسالموا أعداء الإسلام وتحدثوا بمنطقهم ووافقوا مقولاتهم.

لقد أنكر الأفاقون من العلمانيين سنة رسول الله ﷺ فى كثير من أبوابها. وعابوا بعض النصوص النبوية التى تتعارض مع هواهم. وردوا أحاديث الشفاعة وكذبوا بها. وعابوا الرسول ﷺ أحيانا وعاب فريق منهم فقه الفقهاء. وطالبوا بتغيير بعض الأحكام بدعوى أنها لا تلائم مطالب العصر. وقالوا إن هذا تنوير ومرونة فى تطبيق أحكام الشريعة وغيره رجعية وتخلفا.

ومال فريق الى الهجوم على علماء الإسلام العاملين الذين أخلصوا العمل وصححو النية فى معاملة ربهم عز وجل.

وبكل أسف وقف العلماء أمام كل هذه الاتجاهات فى سلبية خطيرة وبعض هؤلاء العلماء ربما وافق بعض وجهات النظر هذه طلبا للشهرة باسم المرونة والتنوير وقالوا للمخلصين من العلماء دعونا مما أنتم فيه من التزمت والتعصب . وحسبو المحافظة على الإسلام تزمتا وتعصبا وذلك منهم جهل وخيانة للأمانة .

إن فى الساحة على مستوى العالم الإسلامى علماء شرفاء مخلصين . لأن الخير موجود دائما ولن ينقطع . وهذا الفريق من العلماء والدعاة المخلصين محل اتهام ممن نعت بهم الدنيا بزخرفها وشهواتها وهان عليهم الإسلام ونبى الإسلام ، لقد كثرت الفتاوى وتباينت . فبعضهم يفتى برأيه وبعضهم يفتى بالمرجوح فى وجود الرأى الراجح . وبعضهم يفتى بالرأى الضعيف فى وجود الرأى الصحيح والفتوى بذلك باطلة كما صرح به كبار العلماء من أمثال الأئمة النووى والعزلى وابن تيمية وغيرهم .

وظن هؤلاء وأولئك أنهم بهذه الفتاوى متنورون ومرنون يتعاملون مع الإسلام بلغة العصر ولم يعلموا أنهم بذلك قد أهانوا الإسلام وضيعوا السنة . ونسوا الله ورسوله ﷺ .

وأقرب - معذرا - هذا هو موقف العلماء فى عصرنا من الإسلام ونبى الإسلام السواد الأعظم منهم نافقوا إما جهلا وإما سعيا وراء تحصيل متعة زائفة وزائلة ، وأما القلة فهم بخير وما زال فى الأمة من العلماء من يغار على دين الله عز وجل وهم واقفون فى خندق الدفاع عن الإسلام وعن نبى الإسلام ضد أعدائه ممن يكيّدون له من الخارج أو من أعوانهم فى الداخل . والله تعالى ناصر أحبابه سيدى يارسول الله : سل الله سبحانه وتعالى أن يهدى علماء لأمة وياخذ بأيديهم ليبلغوا دعوتك ويعلموا الناس أحكام شريعتك ليعملوا بسنتك اللهم أهدى الخائرين منهم والضالين وانصر المخلصين . واجمعهم كلهم على محبتك ومحبة نبيك ﷺ ومحبة الإسلام ليتحقق فيهم معنى الوراثة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .